د. جادي الغازي و د. خيراردو لايبنـر*

تعايش في بلاد «المحاسيم»[1]

«واجهت

حواجز في الدروب

وأبنتُ تذكرتي

وفَتّشَ في يديَّ وفي جيوبي

احسست احساس الغريب

يدب في بلد غريب..»

(شعر: حسن عبد الله

الحان: مارسيل خليفة)

في الشهور الاخيرة صرنا نلاحظ ان تصعيد الاحتلال لبربريته، يقوّي حركة الاحتجاج ضده داخل اسرائيل. وبينما تمحور الاهتمام في الشهور الاولى على اندلاع الانتفاضة في «اليسار الحائر»، يبدو ان النشاط الدؤوب لمعارضي الاحتلال المثابرين داخل اسرائيل اخذ يعطي ثماره. برز من بين المجموعات المختلفة نشاط الحركة العربية – اليهودية «تعايش»، الناشطة في المناطق المحتلة ضد الاحتلال، وكذلك داخل اسرائيل من اجل المساواة التامة في الحقوق وضد مختلف اشكال العنصرية.

(١)

عندما يكرر قائد الاركان الاكثر ايغالا في اليمينية الذي عرفه الجيش الاسرائيلي منذ ايام رفائيل ايتان الحالكة، عندما يمكنه القول ان اسرائيل لا تستطيع التوصل الى تسوية مع قيادة فلسطينية بقيادة ياسر عرفات، فهو لا يعبّر فقط عن رأيه الشخصي او تطلعاته للتمركز في اليمين عشية تقاعده من الجيش ودخوله الرسمي الى السياسة. مهما بلغ به التطرف، فان تصريحات موفاز تعكس اتجاه الريح السائد

*محاضران في قسم التاريخ بجامعة تل ابيب، ومن مؤسسي حركة «تعايش» المناهضة للاحتلال.

حركة «تعايش» في مظاهرة
عند حاجز الرام

لدى القيادة الامنية الاسرائيلية العليا. تلك القيادة الامنية، التي دفعت في حينه اتفاق اوسلو إلى الأمام، تراجعت عنه الان. وتشير عملية «السور الواقي» والاجتياحات غير المتوقفة للجيش الاسرائيلي للمناطق المحتلة الى التوجه القائل بالعودة الى سلطة احتلال مباشر للمناطق كافة، وبكل وضوح. تدل على هذا ايضا محاولة مأسسة نظام الحواجز والتقييدات المفروضة على حرية التنقل داخل الضفة بواسطة اصدار تأشيرات مرور بين المناطق الفلسطينية. هذه محاولة لتأسيس سلطة احتلال «دي لوكس»: قمع مباشر، مع امكانية دائمة للتصرف كسيد عنيف في كل نقطة في الضفة (وهذه احدى دلالات الغزو الاسرائيلي المتكرر لمنطقة المقاطعة)، ولكن من دون تحمل أي قسط من المسؤولية تجاه الحياة المدنية، باقتصادها ورفاهيتها وصحتها وجهازها التربوي. بواسطة تأشيرات العبور والتقييدات، تحاول المؤسسة السياسية الامنية الاسرائيلية التحكم بحياة الفلسطينيين اليومية، ولكن دون ان تدفع قرشا واحدا في صالح الحفاظ على البنية التحتية المدنية.

مات عهد اوسلو في ختام المرحلة الانتقالية، بعد ان فشلت القيادة الاسرائيلية، على رغم محاولاتها، في فرض تسوية دائمة على الحركة القومية الفلسطينية تكون مفصّلة حسب اهدافها: الحفاظ على حد ادنى من الاجماع الداخلي الاسرائيلي (ابقاء كتل استيطانية)، واستمرار السيطرة الاستراتيجية (المياه، الحدود الخارجية، والفيتو على حق العودة، ونزع السلاح) والسيطرة الاقتصادية «النيو – كولونيالية» (مناطق صناعية محمية تقوم على العمل الرخيص على امتداد الحدود وإملاءات جمركية وتجارية). مع ذلك، واضح للجميع انه لا يوجد أي طرف جاد في القيادة الامنية الاسرائيلية يرى في الوضع الحالي او في العودة الى احتلال مباشر وكامل للضفة والقطاع امكانية واقعية، يمكنها الاستمرار على المدى المتوسط والبعيد. اما اعباء الاحتلال الحالية فترمي الى تحقيق «الحسم»، الذي يعني التثبيت بعيد المدى لميزان القوى الحالي. وتتواصل الخلافات داخل المؤسسة السياسية والامنية حول ماهية التسوية القسرية التي يمكن تثبيتها. هنا يُستأنف الجدل التاريخي القديم بين الاطراف المختلفة في المؤسسة الاسرائيلية: ما هو الافضل – اكبر قدر من الارض، ام اقلّ قدر من العرب؟.

يطرح اصحاب الهدف الاعلى في «اقل قدر من العرب» مقترحات كثيرة الان لفصل احادي الجانب و «سخي»، يكون فصلا امنيا متصلا بالانسحاب من «مستوطنات نائية»، واعادة انتشار الجيش حول كتل الاستيطان و «منطقة التماسّ»، أي: عدة كيلومترات شرقي الخط الاخضر. في هذه الحالة سيضطر بضعة الاف من المستوطنين لمغادرة اماكنهم، مقابل شيكات ضخمة واهتمام اعلامي متزايد يمهد امامهم

الطريق. لكن الثمن الاكبر سيدفعه عشرات الالاف من القرويين الفلسطينيين، العائشين في مناطق الكتل الاستيطانية او مناطق التماس. سوف تعبر خطوط الفصل بطريقة تكون فيها مواقع التجمعات السكنية ذاتها خاضعة لسيطرة فلسطينية، بينما يكون القسم الاكبر من الارض جزءا من «منطقة التماس» او يتم ضمه الى كتلة المستوطنات القريبة. هكذا يتحقق الهدف: اكبر قدر من الارض مع اقل قدر من السكان. هذا هو السياق الذي بموجبه يجب النظر الى الطوق المتواصل، والتنكيل اليومي المنهجي بسكان قرى وبلدات كثيرة في منطقة «خط التماس» (كما هو الحال مثلا في مناطق طولكرم، وقلقيلية وسلفيت). انها ترمي الى خلخلة تمسك السكان الفلسطينيين بارضهم وعزلهم من اجل إضعافهم. اذا تم اجراء الانسحاب من جانب واحد في اوج سفك دماء كبير ونشاطات عسكرية واسعة، فقد يتم الانسحاب المتلفز – كتعبير بارز عن الاستعداد الاسرائيلي المعروف لحلول وسط – عبر اقتلاع قرى بكاملها او مصادرات اخرى للارض.

ويفضل اصحاب التوجه الاقليمي جر الوضع القائم قدر الامكان، من خلال توسيع المستوطنات وتقويتها بهدوء. بالنسبة لهم، فان الوضع الامثل هو في خلق نظام فصل عنصري «ابارتهايد» فعلي («دي فاكتو») في المناطق المحتلة. ولانهم يعرفون انه لن يمكن احراز موافقة فلسطينية على «الابرتهايد»، المقرون بتقييد الحركة وغيرها من الاملاءات اليومية من ناحية السكان، فانهم يميلون اكثر فاكثر الى فحص امكانية ترحيل– حتى لو كان محليا وجزئيا– لسكان فلسطينيين تحت غطاء سفك دماء وسلسلة من العمليات الفلسطينية وعمليات الرد العسكرية عليها. تبدو المجابهة المسلحة بنظر اوساط سياسية وامنية مختلفة، برأسها شارون، اطارا مريحا يخلق الفرص لادخال تغيير جوهري في الواقع الاقليمي والديموغرافي.

الشعب الفلسطيني والشعوب العربية وحدها القادرة على ان تعرض على اليهود في اسرائيل ما لا يمكن لاي دولة عظمى ان تعطيه لهم: شرعية حقيقية، وضمانات لأمنهم القومي. علاوة على ذلك: يمكنهم مساعدة الاسرائيليين على الخلاص من السور الحديدي المحيط بهم، بأن يعرضوا عليهم تعايشا حقيقيا، بين طرفين متساويين، بعد اسقاط الجدران الحديدية، التي طوقوا الشعب الفلسطيني بها.

يكمّل هذان التوجهان المتعارضان كل منهما الاخر. هناك قطاعات كاملة في المؤسسة الاسرائيلية قادرة على نقل تأييدها الى واحد من الاثنين حسب الظروف المتغيرة. فالباحثون عن ابتلاع مناطق، يكتشفون احيانا محدودية التوسع ويحاولون اخلاءها من سكانها، اما القلقون الدائمون قبل أي شيء على «نقاء» دولة اليهود واندماجها في الشرق العربي، ما جعلهم يؤيدون الفصل، فينشدّون من حين لاخر الى مغامرة التوسع. لا احد يدعي معرفة الوجهة التي يمضي اليها شارون. ولأن ميزان القوى يميل الى صالحه، فهو يميل الى التقدم، تاركا لنفسه معظم الخيارات مفتوحة. شارون بميوله قريب الى الشق الاقليمي اكثر، لكنه مرن بما يكفي ليتبنى، في ظروف معينة، فكرة الانسحاب احادي الجانب، الذي يحمل مزايا ديموغرافية (أي اعمال نهب وطرد محدودة في «منطقة التماس»). تقوم استراتيجيته على تصعيد تدريجي للمجابهة، وتوجيه ضربات مؤلمة للحركة الوطنية الفلسطينية، من خلال خلق ظروف مريحة في الرأي العام الاسرائيلي والعالمي، انتظارا للفرص الملائمة.

الجانب الثاني من سياسة شارون هو توحيد الرأي العام الاسرائيلي خلفه وتعزيز المجموع القومي ليقف موحدا ازاء تهديدات السلام العادل. لقد ثبت في الماضي ان اجزاء واسعة في المجتمع الاسرائيلي قادرة على التخلص من الاحلام المسيحانية للاستيطان المتواصل– في وقت يبدو فيه المستقبل الاخر، السلامي، امرا حقيقيا وقابلا للتحقق. لذلك يتخذ شارون في مواجهة الرأي العام الاسرائيلي استراتيجية جوهرية. انه لا يعِد سكان اسرائيل بأيام المسيح. ولا يعِد بنصر عسكري حسب نموذج اليمين المسيحاني ولا بـ «شرق اوسط جديد» حسب شمعون بيريس. يحرص شارون على بسط رؤياه السياسية، لاسباب كثيرة منها انه لا يؤمن بأنه قادر على توحيد المجتمع الاسرائيلي حول اتفاق فاعل حسب تصوراته. بدل ذلك، نجده يسعى لجر الجمهور الاسرائيلي الى التسليم بسياسته بلا مناص، بدافع من اليأس والخوف. انه لا يطلب من الاسرائيليين ان يوافقوا على سياسته موافقة فاعلة، بل ان يستكينوا اليها، ويسلّموا بها بلا مفر. انه يقود المجابهة من تصعيد الى تصعيد، لكي يدمر أي احتمال بتسوية سياسية ويحوّل الجدل في مصير الشعوب الى غير ذي صلة. مهّد باراك الارضية لذلك، باعلانه ان لا امل بتسوية سياسية مع الفلسطينيين. وجاء شارون ليواصل سياسته ويقوم بتصعيدها، ليس باعلام الاسرائيليين بانه لا يوجد مستقبل فحسب، بل بقيامه بتصفيته بنفسه، بالدبابات والبلدوزرات. انه مبني من الاحساس باليأس وغياب المخارج، الذي يتجذر في اسرائيل بعد كل موجة من العمليات الانتحارية. بواسطة تصعيد الضغط على السكان الفلسطينيين، وعمليات التصفية وهدم البيوت والاستفزازات المختلفة، يسعى الى تغذية دائرة العنف العاملة في خدمته. التوجهات البربرية في المجتمع الاسرائيلي مؤسسة بجزئيتها على اليأس. عندما ينعدم الامل والمخارج، لا يبقى سوى «الامن الشخصي» ومنطق الانتقام القاتل. هذه هي الصلة بين عنصرَي خطة شارون: ضرب الحركة الوطنية الفلسطينية، والشعب الفلسطيني برمته، ضربة قاتلة، للوقوف فوق اطلال مخيم جنين للاجئين

التي يتصاعد منها الدخان، والاعلان امام الاسرائيليين: ليس هناك من يمكن محادثته. هذه نبوءة تحقق نفسها.

يميل ميزان القوى الحالي في صالح شارون وبن اليعيزر. لذلك هناك حاجة الى استراتيجية مقاومة للاحتلال، لا تنحصر في رد فعل فوري على افعاله وجرائمه، بل تحاول تشويش المنطق الكامن في اساسه وتحقيق اهدافه البعيدة المدى. يجب ان يكون تعزيز الصمود الفلسطيني احد جوانب هذه الاستراتيجية. هذا هو السياق الذي اندمجت فيه على سبيل المثال حركة «تعايش» في معركة جماهيرية للدفاع عن سكان جنوب جبل الخليل ازاء المحاولات المتكررة لطردهم من اراضيهم. لكن، علاوة على الاحتجاج الناشط، هناك حاجة الى خلخلة اسس المنطق الاساسي لسياسة المؤسسة. يجب العمل ضد الفصل والاغلاق، اذا كانت هذه السياسة مؤسسة عليهما. يجب ان نقدم للمجتمع الاسرائيلي مخرجا من الحلقة الدموية، ليس احتجاجا ضد الاحتلال فحسب، بل بديلا فعالا، وحياة خارج الغيتو المسلح الذي يبنى حوله: «تعايش» بين بشر متساوين.

(٢)

«السور الواقي»– الاسم الذي اطلق على حملة شارون وموفاز العسكرية الاخيرة– ليس مصادفا. يشير الاسم الى محاولة لاستغلال مشاعر الخوف لدى الجمهور الاسرائيلي لضرب الشعب الفلسطيني. اما الهدم والموت فيرميان الى ضمان امن وهمي. ما هو ابعد من ذلك ان الاسم الذي اطلق على الحملة العسكرية هو استمرار لتقاليد قديمة. بدءا بالسور الذي يحمي اوروبا من اسيا، التي كان من المفروض ان يشكل المستوطنون اليهود جزءا منها حسب رؤيا هرتسل، مرورا بـ «برج وسور» لدى حركة العمل و «الجدار الحديدي» لدى جبوتنسكي، وانتهاء باقوال بن غوريون، الذي وصف توطين المهاجرين الجدد في المناطق الحدودية بانه اقامة لـ«سور بشري»[٢]، لا تزيده الضغوط الخارجية الا تماسكا وبروزا. من هنا امكنت المواصلة الى «المشارف المسيطرة» و «القلاع»، ومن «الجدار الحدودي» الى «الشريط الامني»، ومن «الاغلاق» الى «الطوق»، وبداخل هذه كلها – صياغة المجتمع الاسرائيلي كـ «دولة في حصار».

علينا ان نحرص على «تسييج المجتمع اليهودي»، كتب اهرون اهرونسون قبل اكثر من ثمانين عاما[٣]. اما افشالوم فاينبرغ فوصف بعد الحرب العالمية الاولى «الاهمية الاقتصادية والحضارية» لـ «اسلاك الشوك الحديدية» في فلسطين، التي ستحيط بالمستوطنات الصهيونية، وتشطر الطبيعة وتحدد حرية تنقل سكان المكان. وهذا ما كتبه:

«على مدار خمسة وعشرين عاما كان الكل شاهدا على اعمال اقامة اسيجة شائكة على طول عشرات ومئات الكيلومترات، بمحاذاة اشجار السّنط التي زرعت هنا. تسلقت النبتة وتلوّت داخل الاسلاك، خضراء على الدوام، مزهرة وناشرة للروائح ومليئة بالاشواك ايضا، رقيقة وشديدة ومدافعة عن الاغراس التي كلفوها بحراستها. حتى ابن أوى بدأ يصطدم بالعراقيل، وبنظر حليفه الماشي على اثنتين، العربي، ازدادت هذه العراقيل تشددا مع الوقت. ولو وصفنا الصورة باسلوب العهد الجديد، سيكون علينا القول: من جهة، وفي داخل المنطقة المحاطة بالسياج، يوجد صاحب البيت الشجاع الواقف بلا كلل بالمرصاد، ومن الجهة الاخرى، في الخارج، يتواجد اللص المتربص بالفريسة (عرقان مختلفان، ونهجان اخلاقيان مختلفان)– وقد نجح كلاهما بالعيش بسلام».[٤]

جدار حي، واسلاك شائكة تتداخل بالنباتات وتحيط «صاحب البيت الشجاع» في مواجهة عدوّه «العربي»، في وقت ينجح فيه الاثنان «في العيش بسلام» في جانبي السياج– هذه احدى الصياغات الصائبة للغاية نحو الحلم الصهيوني، ونحو الفانتازيا الكولونيالية التي تتحول الى كابوس: سياج شوكي فاصل هو في الحقيقة سجن: مصيدة للجالسين بداخله، وكارثة للمتواجدين خارجه. من هنا وحتى الان والفصل يصوغ المجتمع الكولونيالي المتشكل في البلاد. جاء الجدار لكي يضمن تحوّل المستوطنين الى جزء من «السور البشري». سوف تؤدي الضغوط الخارجية الى توحيدهم وستضطرهم الى الاعتماد على حماية خارجية امبريالية. بالمقابل، أي امل باندماجهم في المدى، واية ثغرة في السياج المحيط، تهدد مجرد استمرارية المشروع الصهيوني[٥]. لكي يعيشوا بسلام، على المستوطنين التصرف واعتبار انفسهم كاصحاب المكان، والتحرر من الاسلاك المحيطة بهم، التي خيل لهم انها جاءت لحمايتهم، لكنها جلبت عليهم الكارثة في واقع الحال. من هنا تطفو بعض الاستنتاجات المتعلقة بالمقاومة الفلسطينية للاحتلال في المناطق، وتلك المتعلقة بنشاطاتنا في داخل دولة اسرائيل.

لا تشكل التحركات الدبلوماسية وكذلك العمليات ضد السكان المدنيين استراتيجية ناجعة لمقاومة الاحتلال. فالقيادة الاسرائيلية تنجح بتوظيفها في خدمة تخليد السيرورة الكولونيالية. يمكن صنع مقاومة ناجعة للاحتلال، اذا اخذنا بعين الاعتبار المنطق العميق للديناميكية الكامنة في ذلك. يجب ان نواجه شارون ببديل يقوم على معارضة لا هوادة فيها لاستمرار النهب، تكون بمثابة مقاومة مدنية، شعبية وجماهيرية، تحول دون استمرار نفي الانسانية عن الشعب الفلسطيني، الى جانب

غادرت قافلتنا الاولى في مطلع كانون أول/ديسمبر ٢٠٠٠ نحو قرية حارس في منطقة سلفيت. كانت تلك قافلة مشتركة لمجموعة «تعايش» وفرع «حداش» في كفر قاسم. كان التجديد اولا في التركيبة اليهودية- العربية، ليس في هوية مرافقي شاحنات الغذاء الى كفر حارس فحسب، بل في هوية المتبرعين لجمع الاغذية. قوافل «تعايش» تقوم على تجنيد التبرعات عبر التوجه المباشر الى السكان اليهود- الاسرائيليين. في نقاط التجميع التي اقمناها في الاماكن العامة في المدن الكبرى يطلب الناشطون التبرعات من المارة بواسطة المناشير والملصقات والمحادثات الشخصية.

الاستعداد للتسليم (ليس لمقتضيات الدبلوماسية ولا كتكتيك) بالواقع القائم، ووجود شعب اسرائيلي كجزء دائم من البلاد والمنطقة. الشعب الفلسطيني والشعوب العربية وحدها القادرة على ان تعرض على اليهود في اسرائيل ما لا يمكن لاي دولة عظمى ان تعطيه لهم: شرعية حقيقية، وضمانات لأمنهم القومي. علاوة على ذلك: يمكنهم مساعدة الاسرائيليين على الخلاص من السور الحديدي المحيط بهم، بأن يعرضوا عليهم تعايشا حقيقيا، بين طرفين متساويين، بعد اسقاط الجدران الحديدية، التي طوقوا الشعب الفلسطيني بها.

كيف يمكن تمرير رسالة كهذه؟ وكيف نقنع الاسرائيليين بها؟ لا يمكن القيام بذلك بالكلمات فقط. كانت هناك اهمية قصوى لتمرير هذه الرسالة للاسرائيليين عبر نشاطات الاحتجاج على الاحتلال، واضعين امامهم بديلا فيه شيء من الامل. صعب جدا ان نطلب ذلك من شعب يعيش تحت الاحتلال، ومن اناس يعانون من ضغوط يومية وينكشفون يوميا امام اعمال الارهاب الرسمية التي تنفذها اسرائيل. لكن، لدى الشعب الفلسطيني مصلحة عليا في افشال المنطق الكولونيالي الاساسي- المجابهة المؤدية الى النهب، والمقرونة بالاستيطان الذي يجر في اعقابه مجابهة اخرى. وذلك ليس بالامر السهل، لكن يمكن ايجاد الطرق لاختراق اسوار العقلية حتى نوسع، بقدر الامكان، الهوة بين المجتمع الاسرائيلي وقيادته السياسية – الامنية. اذا، لا يمكن للمقاومة الفعالة للاحتلال ان تكتفي بالميادين التي يدور فيها الاحتلال نفسه. في الواقع، لا يمكن لها ان تكون مجرد «مقاومة». هناك حاجة الى استراتيجية «هجومية» بالذات، من النوع الذي يحاول ان يجد بنفسه ميدان النضال، ويحاول خلخلة المنطق الكولونيالي، ويقدم بديلا ينطوي على امل بحياة اخرى. لذلك لا بد لهذه الاستراتيجية من ان تتضمن المتغيرات الداخلية في اسرائيل.

المجتمع الاسرائيلي مؤسس على فصل ليس اقل تشددا بين اليهود والعرب. فالفصل شرط مسبق لممارسة التمييز تجاه الاقلية القومية الفلسطينية، وهو مركّب مركزي في بناء الحصن المنيع الذي يرمي الى احتواء المجموع اليهودي. البنية الاجتماعية برمتها في اسرائيل تقوم بتخليد الفصل والتمييز. والمدن المختلطة ليست مختلطة. فهي مؤسسة على «الغيتوات». واسواق العمل مقسمة. وجهاز التعليم مفصول. ثم ان فرصة بناء الحياة في المجتمع الاسرائيلي على التعايش تظل كابوس المؤسسة الاسرائيلية بفروعها المختلفة. لذلك نرى اجهزة التعليم والاعلام والمؤسسات الثقافية والخبراء على انواعهم مجندين جميعا لتقوية وتعزيز البُعد الانفصالي في الهوية اليهودية. وتضع وزارة الداخلية العراقيل الهائلة امام حصول غير اليهود على المواطنة، عرباً كانوا ام غير ذلك. ووزارة الاستيعاب متعطشة لقدوم المهاجرين اليهود. وعلى رغم البطالة والبحث عن تقليصات في مصروفات الحكومة، تقوم هذه الوزارة بايفاد المندوبين وتشجيع اليهود على الهجرة وتقدم لهم جنات من الوعود. والى جانب الوكالة اليهودية، يحاولون توجيه المهاجرين حسب المصالح الاستيطانية القومية: تهويد الجليل، وتقوية «ارئيل» و «معليه ادوميم» او «كريات اربع». يحصل المهاجرون على امتيازات خاصة جدا، اذا اختاروا التوجه الى مناطق الاستيطان، حيث تضعهم الامتيازات النسبية التي يحصلون عليها في مجابهة مع جيرانهم العرب. سيتحولون، وبكلمات بن غوريون، الى «سور بشري».

بهذه الطريقة سيتعلم اولئك الاسرائيليون اليهود الجدد على الفور المعادلة السحرية للوجود في نطاق المشروع الصهيوني: ما هو جيد لليهود سيء للعرب والعكس بالضرورة صحيح. وللحيلولة دون نشوء أي تعايش، لا سمح الله، تحذّر وسائل الاعلام الجماهيرية اليهودَ صباح مساء في ما لا حصر له من الاشكال المباشرة والملتوية من دخول المناطق العربية واقامة العلاقات الاجتماعية. في الجغرافيا المتخيَّلة لغالبية المواطنين اليهود في اسرائيل، تبقى التجمعات السكنية العربية مشوشة الملامح. الطيبة مثلا تُنسَب الى «المثلث»، الاقليم البعيد وغير المدرك لدى التل ابيبي او الرمات غاني المتوسطين، اللذين لا يعرفان ان الطيبة تقع ايضا في «الشارون»، مثلما ان كفار سابا لا تقع بمحاذاة قلقيلية فحسب (قبالتها!)، بل في المثلث الجنوبي ايضا. الفصل الحقيقي – ولا يقل عنه الفصل العقلاني – هما اجهزة تخدم استمرارية علاقات التسلط وتسمح بتجديد العمليات الكولونيالية

داخل «الخط الاخضر» وخارجه.الاسيجة والجدران المحيطة تحدد جيدا المجموع القومي– الاثني، وتوحد ساكني القلاع، وتغرّبهم عن ساكني المكان، الذين يتحولون الى «محيط عدائي»، وترسم خطوط المجابهة بين اليهود والعرب. بدون الاسوار والاسيجة الفاصلة، فقد تلتبس الامور على الـ «نحن» والـ «هم»، وقد كانت هناك صعوبة فيما لا يحصى من المرات في اثارة المجابهة التاريخية، التي هي نتيجة لعملية الاحتلال – الاستيطان – والطرد السابق – وهي ايضا المحفز للاجراء القادم.

في نطاق علاقات السيطرة وانعدام المساواة فان الاقتصاد الرأسمالي المتطور والمجتمع العصري يخلقان ايضا، وعلى رغم كل شيء، الكثير من نقاط الاتصال الانسانية، القادرة على خلخلة منطق الفصل. هكذا هو الحال في الجامعات مثلا، حيث يجد العرب واليهود انفسهم فيها جنبا الى جنب. كانت هذه هي القاعدة الاجتماعية لنشاط مجموعات يسار مشتركة، مثل «كامبوس»، التي لعبت دورا مهما في النضال ضد العنصرية والتمييز من جهة، وكذلك في حركة الاحتجاج ضد الحرب في لبنان. لكن حالات اجتماعية قد تنشأ في اماكن العمل او المستشفيات، وتعرّض للخطر مبدأ الفصل. احيانا، تضع الاتصالات البشرية او التضامن على ارضية مشتركة اخرى (مهنة، تاييد رياضي، مصلحة اقتصادية وغيرها) علامة سؤال على النظرية القومية السائدة. عموما، هذه ليست سوى شكوك واهية وغير مبلورة في مواجهة ايديولوجيا الفصل المهيمنة. على هذه الارضية يجب ان نفهم ظهور مصطلح (coexistence) وهو مفهوم تجاه العلاقات المتبادلة والاتصالات غير المتعلقة بالصراع بين اليهود والعرب، يحاول تعويم هذه الاتصالات دون ان يستأنف ضد الفصل الاساس. ومثلما اسست الدول العظمى فيما بينها تعايشا مسلحا في فترة الحرب الباردة دون الغاء الخصومة ودون المس باسس الصراع بينها، هكذا يسعى التعايش الى ادارة الحياة اليومية التي لا ينجرف فيها العرب واليهود الى مجابهات غير متوقفة بل يتعاونون فيما بينهم. كل ذلك – بدون المس بعناصر الصراع ودون الاستئناف على تعريف المعسكرات المتخاصمة. لا يجب الاستخفاف بمحاولات اضفاء نوع من «المستوى الثقافي» على الصراع، وبخاصة اذا اخذنا على محمل الجد مخاطر النزعات البربرية العنيفة فيه. لكن الحياة معا لا يمكن ان تكون تعايشا. فالتعايش معناه الحياة المشتركة على اساس المساواة، والتي لا تقبل بوجود اسوار الفصل والقبلية. هذا هو برأينا المنطق السياسي الاساي الذي يوجه نشاطات حركة «تعايش». قبل ان نستعرض كيف ينعكس هذا المنطق في نشاط المجموعة، علينا التأكيد على اننا نعبر عن تفسيراتنا الخاصة فقط. من جهة ثانية، نحن ازاء شيء انتجته نشاطات جماعية. ومع ان التحليل مؤسس على محاولات سياسية سابقة كنا طرفا فيها، لكنه ليس ثمرة تفكيرنا وحدنا. فقد تبلور من خلال فعاليات «تعايش»، في حوارات مطولة تخص نشاطاتها وناشطيها. ثانيا، هناك هوة واضحة بين الرؤيا الشاملة للتعايش وبين الحركة الصغيرة ذاتها، التي تحمل هذا الاسم. لقد تقوّت حقا في السنتين الاخيرتين، وسجلت عدة انجازات قيمة، لكن من المؤكد انها ليست تطبيقا كاملا للاقوال التي بسطناها هنا. لكن الجوانب العملية السياسية والرؤيا البديلة اهم بكثير من التنظيم المعين، الذي يسعى لدفعها الى امام.

(٣

خلال النصف الثاني من تشرين الأول/اكتوبر ٢٠٠٠ وجدنا انفسنا سوية مع ناشطي اليسار ممن تقاطعت طرقنا معهم عدة مرات في السابق، نلتقي في المظاهرات العربية – اليهودية القليلة التي جرت في المدن الكبرى. ثلاثة عشر فلسطينيا من مواطني اسرائيل يُقتلون برصاص قوات الامن. الانتفاضة الثانية اندلعت، لتجدنا حائرين وغاضبين. غضبنا على اليسار الصهيوني «الحائر»، الذي ترك معسكر السلام وتخلى عن شركائه العرب. كنا حائرين نتيجة عجز القوى المثابرة في اليسار الاسرائيلي والحركات السياسية لدى الجمهور العربي. راودتنا احاسيس صعبة تجاه انفسنا، لاننا في ساعات الامتحان الصعبة، في اوقات الفوضي والانفلات، لم نكن قادرين على انتاج أي رد فعل مضاد وذي قيمة، سوى الاتصال جَزِعين ببعض الاصدقاء. في ساعة الاختبار الكبرى لم يكن هناك من يجند ناشطي اليسار اليهود لمساعدة اصدقائهم العرب. في ساعة كهذه ثبتت قدرة سلطة الفصل في المجتمع الاسرائيلي على تعطيل النشاط السياسي. كل مَن شارك مثلنا في الماضي في نشاطات يسارية يهودية – عربية كان يتمزق من الداخل ازاء العجز عن الفعل. كذلك فان الذاكرة التاريخية عن الانقسامات السابقة بين اليهود والعرب في اطار اليسار في البلاد في اوقات الازمات السياسية لم تحمل اية بشرى مطمئنة. في اواخر تشرين الأول/اكتوبر ٢٠٠٠ منح الرأي العام اليهودي في اسرائيل شرعية تتسع باضطراد للمساس بحقوق الاقلية الفلسطينية، ونجحت فكرة الترانسفير منذ ذلك الحين باكتساب المزيد من الانصار والشرعية. من جهة ثانية، تعززت لدى الجمهور العربي توجهات انفصالية واضحة. انتشر الاحساس بانه لا يوجد ما يمكن توقعه من الشركاء اليهود ومعه تعزز الحقد المنفلت تجاه اليهود. بعد اندلاع اعمال الاحتجاج الجماهيري الصاخبة والقمع العنيف، بدأت في اواخر اكتوبر مرحلة الانغلاق والخوف السلبية.

في غضون ذلك اشتدت المجابهة في المناطق المحتلة. استكمل باراك انجازه الاساس – اقناع الرأي العام اليهودي بانه لا يوجد من نصنع معه سلاما في هذا الوقت. اصبح الطوق والاغلاق وسائل اساسية في تركيع الشعب الفلسطيني، وبينما كان سفك الدماء اليومي يتواصل، اختار «معسكر

أعضاء تعايش في مظاهرة عند حاجز الرام

السلام» الصهيوني الاختباء. لذلك ازدادت اهمية حركات السلام المثابرة. لكننا لم نكن قادرين على الاكتفاء بالنشاط في نطاق حركات احتجاج ليساريين يهود، مهما كانت راديكالية ومحقة. من جانبهم، احس الاعضاء العرب في المجموعة والأعضاء العرب الأوائل بالمخاطر الكامنة في العزل السياسي بعد احداث تشرين الأول/اكتوبر ٢٠٠٠، وفي الوقت ذاته كانوا معنيين بالابتعاد بنشاطاتهم الى ما هو ابعد من المستوى المحلي والاطر الحزبية. ومثلما كان الحال معنا، هم ايضا كانوا متعطشين لشراكة يهودية-عربية. فكرنا سوية باقامة مجموعة نشاط عربية- يهودية تنشط ضد الاحتلال، ولكن شرط ان تكون ايضا قادرة على الرد في اوقات الانفلات ضد الفلسطينيين داخل اسرائيل، وان تسعى ضد الفصل والانفصال القومي- القبَليّ. كان الالتزام العميق والحساس والاخلاقي بالنضال اليهودي- العربي المشترك في الحلبتين سابقا لاي استيضاح للسؤال عن نوع المجموعة التي نريد تشكيلها، وكيف يمكن العمل في الظروف الجديدة الطارئة. قبل أي شيء كنا راغبين بان نكون معا، يهودا وعربا، في ساعة الشدة، في الايام الصعبة التي توقعنا ان تجيء. هذا هو التزامنا بعيدا عن أي اعتبار يخص الفائدة السياسية. ولكي نقف في هذا الالتزام، كنا مطالبين ببناء شراكة عميقة قائمة على الثقة التامة. لذلك، وفي الاحاديث والنشاطات الاولية بدأنا السعي نحو تعارف عميق وشخصي بعيد عن النقاشات السياسية ولكنه لا يتهرب منها ايضا. فقط تحالف من الاسفل، فقط بين الناشطين، يتشكل من خلال النشاط المشترك، والمجابهة المشتركة للمصاعب والاخطار، قادر على انتاج الثقة العميقة. لم يكن لدينا وصفات نظرية او عملية. كان لدينا اتجاه عام وتحفز واحساس بالالتزام. مع ذلك فان معظم الناشطين في النواة الاولية لحركة «تعايش» كانوا ذوي نشاط سياسي سابق، في اطر يهودية عربية ايضا. تعرفنا كذلك على بعض الحساسيات، التي يجدر ان نأخذها بالحسبان اثناء عملنا المشترك. سعينا للعمل معا بدون تكبر، بدون ادلجة، بدون تهادن تجاه السياسة الرسمية وبدون الانقطاع عن البيئات الاجتماعية المتنوعة التي نتحدر منها. ولكي لا يبقى النشاط العربي اليهودي مجرد تصريح شكلي، من الضروري ان تتخذ جميع القرارات معا، وان يبحث الناشطون اليهود والعرب في الحساسيات والدلالات الكامنة في كل نشاط اثناء التخطيط به. اقنعتنا تجاربنا السياسية السابقة انه يجدب اعطاء الاولوية للنشاط على صياغة برنامج دقيق جدا. كنا نعرف سلفا اننا جميعا معارضون للاحتلال ومؤيدون للمساواة التامة بين العرب واليهود داخل اسرائيل. بسهولة امكننا ان نقضي اسابيع طويلة في نقاشات حول تفاصيل مشروع السلام العادل والممكن والمنشود. بدلا من الثقة كنا انذاك

نزرع الانقسام والجدل. الحّ الواقع المشتعل علينا ان نتقدم في مجال النشاط العملي. كنا راغبين ايضا ببناء مجموعة واسعة من ناحية الهويات السياسية للناشطين، تكون مفتوحة لتعاون مع الاحزاب والتنظيمات على اساس الاتفاق على نشاط مشترك، ولكن محافظة على استقلاليتها. اثبتت هذه السياسة نفسها، وهناك الكثير من بيننا ممن هم ليسوا اعضاء او ناشطين في أي حزب، الى جانب ناشطين وناشطات هم في الوقت ذاته ناشطون في «حداش»، والتجمع الديمقراطي، و «ميرتس»، ومنظمات سلام، ومنظمات نسوية، وفي القوس الديمقراطي الشرقي، ومنظمات اجتماعية مختلفة.

بما اننا لم نكن تحالفا لمثلي تنظيمات ولا تنظيما هرميا مع قسمة وظيفية محددة سلفا، تبنينا سريعا انماط تنظم على اساس الديمقراطية التعاونية، التي تتخذ القرارات فيها في هيئة ناشطين واسعة، على اساس التباحث العميق في طابع النشاط. لا تهدف المناقشات المتواصلة في المجموعة الى توضيح الفوارق في المواقف المختلفة للتغلب بواسطة الاغلبية على الاقلية، بل لكي نفهم بصورة اعمق المنطق الكامن في اساس المواقف المختلفة، واقناع بعضنا البعض بقدر الامكان، للتوصل الى اتفاق، يمكنه ان يشكل قاعدة لنشاط مشترك. حاولنا اتخاذ قرارات بالاتفاق ونشأت اجواء حوار سمحت لنا باجراء مباحثات تلخيصية، من خلال الاهتمام بشكل خاص بتفاصيل الفعاليات ودلالاتها، في محاولة لان نبني انفسنا عبر تعدد الخلفيات في داخل المجموعة. منذ بدايتها كانت «تعايش» مجموعة متجانسة من ناحية الاعمار، والتجربة الحياتية والاصل الطبقي، والاثني والثقافي.

ينصب جُلُّ التفكير في «تعايش» على النشاط ذاته. كان معظمنا ميالا الى نشاطات تضامن مباشرة، من النوع الذي يحمل معه دلالات عملية وليست معنوية فقط. حاولنا التفكير معا، كيف يمكن في الظروف الصعبة التي نشأت عدم الاكتفاء بامتلاك الرسالة السياسية بل بتمريرها؟ كيف نصوغ نشاطات تجمع اكبر قدر من الناس فيها وتشجعهم على تحمل المسؤولية؟ عندما بدأنا العمل في تشرين الثاني نوفمبر ٢٠٠٠، لم يكن هدفنا خلق مجموعة مختصرة من الناشطين المخلصين، بل ايضا تمكين جيل جديد من الناشطين من الانضمام. بحثنا عن نماذج عمل، تسمح بتجاوز الدائرة المختصرة للناشطين السياسيين. بدا لنا ان الثقة والالتزام العميقين متصلان باشياء محسوسة، وان النضال ضد الاحتلال او التمييز متصل بمسائل عينية، «صغيرة» ضمن المنظور العام، لكنها كبيرة وذات قيمة نوعية بالنسبة للبشر المقموعين. كذلك اليسار المثابر، في البلاد وفي اماكن كثيرة من العالم، فقد على فترات متقاربة الصلة والعلاقة بين المستويات المبدئية في نضاله وبين البعد العملي المحدد الكامن في القمع وفي التحرر. يمكن لانجرار اليسار الراديكالي الى سياسة الشعارات والرموز ان يؤدي الى فقدان الاساس الذي يمكن ان يجند الناس حوله والبرامج الكامنة في النضالات العينية. عندما يتلخص النشاط السياسي باتخاذ مواقف في مواجهة اقوال السياسيين الممثلين على شاشات التلفزيون، نتحول كلنا الى اسرى وسائل الاعلام، التي تحاول بيعنا واقعا ومواقف مختلفة. توجد اهمية خاصة لهذا الاعتبار المبدئي في السياق المباشر الذي ننشط فيه. بالكلمات والرموز صعب جدا ان نتغلب على الخوف والعنصرية، التي يسهم الواقع السياسي الشامل نفسه في استنساخها. اشك كثيرا في ان تكون افضل النصوص المكتوبة جيدا اليوم قادرة على اقناع الفلسطينيين بوجود شركاء حقيقيين في اسرائيل في النضال ضد الاحتلال، او اقناع الاسرائيليين بوجود بديل حقيقي للتقوقع خلف سياج فاصل. «الانكشاف الاعلامي» ليس قادرا بحد ذاته على خلخلة الطريقة التي يتم بواسطتها فهم واقع سياسي معين، يُصاغ بالبلدوزرات والحواجز والموت اليومي. لذلك فاننا لا نضع الظهور في التلفزيون كهدف مركزي لنا، ونمتنع عن اطلاق التصريحات للصحافة او تنظيم نشاطات ذات قيمة رمزية لمجرد اننا نرغب بـ «الدخول الى وسائل الاعلام». دخول ٢٠٠ مواطن اسرائيلي يهودي وعربي الى قرية في الضفة تعاني من الاغلاق والتنكيل يبدو لنا نشاطا اكثر فائدة وجدارة من تشكيل مجموعة احتجاج ترفع شعارات مثيرة تشد مصوري الصحافة اليها. لا نستخف طبعا بقوّة وسائل الاعلام واهمية النشاطات الرمزية، التي نسعى لأن نتوصل بواسطتها الى الناس. لكن نجاعة نشاطات كهذه– التي شاركت فيها مجموعة «تعايش» بجانب حركات اليسار الاخرى– مشروطة بشروط اجتماعية مسبقة، اولها خلق جو يسمح لاجزاء واسعة من المجموعات البشرية التي تعنيها بالتضامن مع الرسالة التي ترغب بتمريرها. ليست هذه هي الاجواء التي تنشط في ظلها بشكل عام. الدائرة الدموية التي نتواجد فيها تعمّق الهاوية بين منطلقات نظر الفلسطينيين والاسرائيليين. انها تضع احاسيسهم والامهم في تناقض حاد فيما بينها. لذلك قللنا من النشاطات الرمزية. كان قرار التركز في انواع عمل اخرى اسهل بكثير، لاننا قررنا سلفا الا نتنافس مع الهيئات السياسية الموجودة بل اضافة الابعاد التي بدت لنا ناقصة الى نشاطها. لذلك فان الكثيرين من ناشطي «تعايش» يشتركون في النشاطات ضد الاحتلال ومن اجل المساواة، التي تبادر اليها مجموعات اخرى.

من خلال المناقشات المتواصلة تبلورت انماط العمل التي تميز حركة «تعايش» اليوم. وهي لم تكن موجودة سلفا على هيئة وصفات جاهزة، بل نجمت عن الاحاديث والنشاطات، وفي امتحان التجربة العملية وبمساعدة ناشطين فلسطينيين في المناطق المحتلة. في المناطق وجدنا شركاء لميلنا

مظاهرات «تعايش» في جنين.

نحو تفضيل السياسة «من الاسفل»، السياسة الشعبية، غير العنيفة، المباشرة والمحددة. وهكذا اقمنا في القرى الموجودة في منطقة سلفيت صلات مع ناشطين سياسيين فلسطينيين، ساعدونا في صياغة اشكال نشاط هذه المجموعة، وكانوا مستعدين للدخول في عملية بناء الثقة والشراكة، المعقدة من الاساس. هذه ليست اموراً مفهومة ضمنا، في ايام سفك الدماء اليومية والنظريات القومية- القبَلية. رغم ضغط الاحتلال المتواصل، لم تفقد قطاعات واسعة في المجتمع الفلسطيني القدرة على التمييز تجاه المجتمع الاسرائيلي. بدون اجماع وطني محلي واسع لا يمكن لمواطني اسرائيل القيام بزيارات جماعية الى قرى الضفة. ولولا الثقة العميقة التي يولونها في الضفة الغربية لهؤلاء الناشطين، لم يكن بمقدورنا العمل. بالتعاون معهم بدأنا تنظيم قوافل الاغذية والتضامن. تطورت فكرة القوافل من خلال نموذج منتشر ومعروف في الاعراب عن التضامن- ارساليات الاغذية من الفلسطينيين في اسرائيل الى اخوتهم الذين يعانون من الاغلاق والحصار الاقتصادي في المناطق المحتلة. غادرت قافلتنا الاولى في مطلع كانو الاول ديسمبر ٢٠٠٠ نحو قرية حارس في منطقة سلفيت. كانت تلك قافلة مشتركة لمجموعة «تعايش» وفرع «حداش» في كفر قاسم. كان التجديد اولا في التركيبة اليهودية- العربية، ليس في هوية مرافقي شاحنات الغذاء الى كفر حارس فحسب، بل في هوية المتبرعين لجمع الاغذية. قوافل «تعايش» تقوم على تجنيد التبرعات عبر التوجه المباشر الى السكان اليهود- الاسرائيليين. في نقاط التجميع التي اقمناها في الاماكن العامة في المدن الكبرى يطلب الناشطون التبرعات من المارة بواسطة المناشير والملصقات والمحادثات الشخصية. وفي ذلك تحدّ امام جميع المارة: هل انتم مستعدون للتضامن مع معاناة الفلسطينيين في المناطق المحتلة؟ حتى عندما لا تسمح الاجواء العامة باقامة نقاط تجميع في الشارع (قام بلطجيون باخلاء اربع نقاط كهذه) وبخاصة في فترة العمليات الصعبة ضد المدنيين، فان توجه عشرات الناشطين الى افراد العائلة والزملاء في العمل والمعارف للتبرع والتضامن هو خطوة سياسية مهمة، تضع الناس وجها لوجه امام نتائج سياسة الحكومة.اشخاص كثيرون لا يريدون او لا يستطيعون لاسباب كثيرة الاشتراك بنشاطات سياسية، وجدوا في التبرع لقوافل الاغذية طريقا للتعبير عن موقفهم، وطريقا لربط انفسهم بالنضال والاحساس بانهم ليسوا معزولين في المجتمع الاسرائيلي. احس الناشطون العرب، الذين خرجوا الى نقاط التبرع في المدن الكبرى الى جانب زملائهم اليهود، انه على رغم العداء والعنصرية التي تميز الشارع اليهودي، فانهم قادرون على الاعراب عن موقف سياسي واضح. في حالات معينة، وكما يقول الزملاء العرب، كان

هناك وزن كبير في النقاشات مع المارة غير المقتنعين. من جهة اخرى، فان عمليات التجميع المشتركة التي يقوم بها ناشطون عرب ويهود في المناطق العربية داخل اسرائيل كسرت الصورة المقولبة السائدة، وعززت من الاحساس بالانتماء لدى قسم من السكان.

الخروج في قافلة سيارات كبيرة، في مجموعات مختلطة لناشطين يهود وعرب، يوحدهم الالتزام بالدفاع عن بعضهم البعض، هو بحد ذاته تظاهرة سياسية من الدرجة الاولى. هذه تظاهرة ليست باعثة على الاحباط اطلاقا، وتقوّي المشاركين فيها وتضعهم في مواجهة مع واقع الاحتلال المحدد. يجابه المشاركون في القوافل الحواجز العسكرية، واكوام التراب التي تسد مدخل القرية، ويرون اشجار الزيتون التي قطعها المستوطنون بحماية السلطات.

انهم يلتقون مع الناس العاطلين عن العمل قسرا، شهورا على شهور، واولاد المكان، الذي يعد المصطلح «يهود» بالنسبة لهم اسما مرادفا للجندي او المستوطن. كذلك فان خلفيات المشاركين في القوافل تتغير بصورة مثيرة. الجيش والشرطة يتابعان قوافل «تعايش»، وعندما لا يحاولان سد طريقها يحاولان مرافقتنا الى اهدافنا ويتم رفضهم بشدة في مدخل القرية المقصودة. يعرض الجيش حمايتنا، نحن المواطنون الاسرائيليون المسافرون داخل المناطق المحتلة، فنرفض. حتى الان نجحنا بعد مفاوضات وضغوط من جانبنا الدخول الى معظم القرى الفلسطينية بدون مرافقة عسكرية. بالنسبة لاسرائيليين يمرون لاول مرة بمثل هذه التجربة، فان لحظة الانفصال عن سيارات الجيب العسكرية التي سارت في اعقابنا، واللقاء بالمضيفين ودخول القرية تجعلهم يحسون للحظة انهم محاطون بجيش الاحتلال، تماما مثل السكان الفلسطينيين.

الحقيقة ان قيام نشطاء الحركة بجلب مساعدات عينية للفلسطينيين في المناطق المحتلة، ليس كعمل خيري او انساني مجرد، بل كتعبير عن تضامن سياسي لمجموعة يهودية–عربية من اسرائيل، هذه الحقيقة تؤثر على طابع النشاط. القافلة لا تحمل رسالة رمزية فقط، وهذا يعزّز عزم النشطاء وقوتهم وفي الوقت ذاته يقوي طابع اللاعنف لهذا النشاط. انه ايضاً يصعب على قوات الجيش والمستوطنين وقفهم، فعندما حاولت قوة من حرس الحدود منعنا في نيسان ٢٠٠١ من تفريغ سيارة معونات في قرية ياسوف، فقد جسدت (الشرطة) بهذه المحاولة وامام عدسات الكاميرات احد اساليب القمع القاسية والناجعة واللامرئية والتي لا تلتقطها العدسات عادة، ألا وهو الاغلاق والضغط الاقتصادي. أولاً حرس الحدود اعتدوا على النشطاء الذين انزلوا اكياس الأرز والسكر، والنشطاء واصلوا عملهم وهم يقاومون بدون عنف وسط هتافات سكان القرية.

ولكن، ان الظروف العسكرية والسياسية لا تمكن دائماً من تنظيم قوافل تضامن جماهيري كما كنا نرغب في ان يكون. بالذات، عندما يشتد قمع الجيش ويدخل الى مناطق أ، تنشأ ضرورة خاصة للتضامن وفي بعض الاحيان اضطررنا الى تقديم الغذاء والدواء كمساعدات تضامنية فورية ليس بواسطة قوافل جماهيرية. في خلال الاجتياح الأول لمدينة رام الله، نظمت حركة «تعايش» بالتعاون مع ائتلاف النساء لأجل السلام ولجنة المتابعة العربية مظاهرة كبرى عند حاجز الرام، مطالبين بنقل شاحنات محملة بالادوية والغذاء الى رام الله المحتلة. بالرغم من محاولات تفريق المتظاهرين بالغاز والهراوات، اضطرت السلطات الى السماح بنقل المساعدات كشرط لموافقتنا على اخلاء المكان، وقد كررنا ذلك مع شركائنا عند حاجز جنين بعد اسبوعين.

يتطلب تعميق البعد الاجتماعي للنشاط السياسي دورا طويل الامد في النضال المحلي. نموذج جيد لمعركة محلية من هذا النوع يمكن العثورعليه في نشاطات «تعايش» في دار الحنون، وهي قرية صغيرة غير معترف بها في المثلث الشمالي٦. منذ عشرين عاما تحاول سلطات الدولة اخلاءهم من مكانهم. بالتعاون مع السكان في الارض، نظمت «تعايش» معسكر عمل تطوعيا، في اغسطس (اب) ٢٠٠١. كان ذلك مشروعا متواضعا استمد ثقته من تراث مخيمات العمل التطوعية التي ازدهرت في السبعينيات والثمانينيات.٧

حوالي ٤٠٠ متطوع يهودي وعربي من جميع أنحاء إسرائيل شقوا طريقاً طولها حوالي مائة متر إلى ساحة القرية وأزاحوا ردم البيوت التي هدمت في الماضي وأقاموا ملعباً للأطفال، وصلت قوات من الشرطة لمنع العمل ولكنها سرعان ما تراجعت، ثم ألغي أمر الهدم في المحكمة، لكن الدولة استأنفت وما زالت القضية في المحاكم، وفي الوقت ذاته يتواصل النضال الجماهيري ليس فقط للدفاع عن البيوت القائمة، بل قدمت خارطة هيكلية بديلة للقرية ومنذ ذلك الوقت يتواصل النضال من أجل خلق تحالف بين قرى المنطقة، وتشكيل قوة ضغط برلمانية لأجل دار الحنون.

ليس هذا نشاطا متطرفا، فهو بنّاء، غير عنيف وراديكالي بالمفهوم العميق للمصطلح: فهو يكشف جذور التمييز الخفي ويحاول ان يستأنف ضده بعلامة سؤال. بدلا من الاكتفاء بالدفاع الممكن عن النفس ازاء الحرب الهادئة التي تخوضها سلطات الدولة ضد الاقلية القومية الفلسطينية، يضع معسكر العمل تحديات عينية امام سياسة السلطات ويعتبر ايذانا بفتح معركة سياسية. لكن من المهم ان نرى ان النشاط السياسي ليس موجها نحو السلطات فحسب، بل نحو المشتركين انفسهم: اولا، توحد السكان

المحليون حول المشروع المحدد، عربا ويهودا، وتعرفوا خلاله على التمييز الممأسس ضد مواطني اسرائيل الفلسطينيين. كل من عمل في دار الحنون في المعسكر عرف معنى «احتلال الارض». ثانيا، اصبح المشتركون في المعسكر ملتزمين بالدفاع عما بنوه سوية مع المواطنين. ثالثا، ادى التحدي المباشر الى تجنيد السكان المحليين المجاورين الى التضامن النشط مع سكان دار الحنون.

تركز جزء كبير من نشاطات «تعايش» في المناطق المحتلة في منطقتين، يتهددهما خطر النهب والالحاق حسب خطة باراك وحسب خطة موفاز ايضا: منطقة سلفيت ومنطقة جنوب الخليل. وسط الحلقة الدموية التي نمر بها، وفي ايام الاعتداء على حقوق الانسان في المناطق المحتلة، هناك حاجة ملحة للفت الانظار العامة الى الاجراءات الاقليمية والديموغرافية، التي تخلق واقعا جديدا: المستوطنات، النهب، والاقتلاع والضم. من هنا اهمية معركة الدفاع عن سكان جنوب الخليل، الذين تحاول السلطات الاسرائيلية منذ سنين طردهم من ارضهم. انضم نشطاء «تعايش» إلى الحملة في جنوب الخليل صيف ٢٠٠١، وهنا تحقق تحالف بين «تعايش» ونشطاء من حركات أخرى تناهض الاحتلال، اكتسبوا خبرة في نضالات سابقة دفاعاً عن السكان العام ١٩٩٩، مثل: نشطاء اللجنة ضد هدم البيوت، ورجال دين للدفاع عن حقوق الإنسان، جمعية حقوق المواطن، والفوروم لأجل التعايش في النقب ومركز المعلومات البديلة، وانضم إليهم ائتلاف النساء من أجل السلام و«غوش شالوم» (كتلة السلام)، في هذه الحملة أيضاً كانت أهمية كبرى للتعاون مع نشطاء سياسيين فلسطينيين من المناطق المحتلة.. أعضاء لجنة الدفاع عن الأراضي.

في المعركة الطويلة والمتواصلة ضد الاستيطان ونهب الأرض نجحوا في الجسر بين نضال السكان المحليين دفاعاً عن حقوقهم وبين النضال السياسي العام. منذ العام ١٩٩٩ تحاول السلطات طرد سكان منطقة سوسيا الذين يسكن بعضهم في الكهوف والمغارات ويربون الماشية ويفلحون أراضيهم على الهضاب الجرداء جنوب يطا. بالمقابل تقع مستوطنات من أكثر المستوطنات العدوانية، وقد قامت «تعايش» بنشاطات تضامنية مع السكان الفلسطينيين أولاً لتثبيت السكان على أراضيهم في مواجهة التحالف غير المقدس بين الجيش الإسرائيلي والمستوطنين والإدارة المدنية، وثانياً: تحطيم الصورة المشوهة عن العدو وجعل آلاف الإسرائيليين يتضامنون – في خضم المواجهة المسلحة مع السكان الفلسطينيين في جنوب الخليل مع حقوقهم العادلة. قوافل التموين خلقت علاقات احترام وثقة مكنت نشطاء «تعايش» من الوقوف إلى جانب السكان الفلسطينيين في أثناء محاولة لطردهم وأفشلت هذه المحاولة. بعد عملية طرد، نفذت في منتصف الليل، انطلقت إلى المكان بعثة تضامن انتظمت بحزام بشري مكن الأهالي من العودة إلى أراضيهم. هذا الدعم للسكان الفلسطينيين أغضب المستوطنين، فحاولوا منعنا من القيام بنشاطاتنا وسدوا الطرق أمام القوافل ودخلوا في مواجهات مع نشطاء «تعايش»، ما أظهرهم أمام الرأي العام كمعتدين.

ازاء ذلك كله، نشأت هنا جبهة مشتركة اسرائيلية فلسطينية ضد الاحتلال. لكن مخاطر اجلاء سكان جبل الخليل ما زالت سيفا مسلطا عل الرقاب.

٤)

هذه النماذج الثلاثة: قوافل التضامن، معسكر العمل في دار الحنون والمعركة ضد طرد سكان جبل الخليل، توضح كما نرجو عددا من اسس النشاط التي تطورت في «نعايش» منذ اقامتها: محاولة تجاوز التعرف الضيق للنشاط السياسي، الذي يحصره في فعاليات رمزية، لاعادة البعد العملي والمادي والمحلي للسياسة، . الاختيار الواعي لنشاط سياسي غير عنيف، من خلال ادراك العلاقات في ميزان القوى القائم، ومحاولة اختيار ميادين واشكال العمل، التي تضع سلطة الاحتلال والتمييز في حالة دفاع عن النفس، وتسمح للناس بالتضامن معها.

ترددنا كثيراً باختيار الاسم «تعايش». كنا ندرك ان في اللغة العبرية مثل لغات اخرى ليس هناك مصطلح موازٍ لـ «تعايش» هناك من يترجمه الى اللغة العبرية «دو كيوم» (وجود ثنائي) وليس هذا هدفنا، فلا يمكن ان يتم التعايش في ظروف عدم المساواة. وعلاقات القوة والسيطرة، وفي مجتمعات تجذرت فيها ايديولوجيات الانفصال. فكرة التعايش تحمل بعداً طوباوياً بعيداً عن واقعنا الملموس. من جهة اخرى، من شأنه ان يشير الى بديل للصراع القومي ولكل تسوية سياسية لا تغيّر الاسس الكولونيالية للصراع ولا يقوم على المساواة والعدالة. ان النشاطات المشتركة لتقويض الاحتلال والتفرقة تبني هنا وفي هذا الوقت، الأسس للشراكة المستقبلية، وتحويل التعايش من حلم الى واقع اجتماعي.

هذه الفعاليات لا تخلق فقط شراكة يهودية–عربية، بل تقرّب النشطاء الى ابعاد لم يعرفوها في واقعنا الاجتماعي، فيتم الكشف عن منابت أخرى للقمع واللامساواة، عدا عن الكولونيالية والصراع القومي. ان تفضيل الوحدة القومية في الاجندة السياسية وفي وعي معظم الجماهير العربية واليهودية تطمس وتقزّم تناقضات اجتماعية مختلفة مشروطة بالقمع والاستغلال والمعاناة.

صحيح أن التقسيم الاجتماعي الكولونيالي يؤدي إلى إضفاء الطابع القومي على بعض الأسئلة الاجتماعية، ولكن هذه الأسئلة لن تقتصر فقط

وأيضاً..مسيرات «تعايش» في جنين

على المسألة القومية. إن السياسة العينية التي تمس الشؤون اليومية لبني البشر، تسمح لهم بألاّ يهمّشوا شؤونهم الملموسة أمام قضيتهم الطبقية أو القومية أو موقفهم من الصراع والسلام أو يستغلون على أساس طبقي، جنسي، حضاري، طائفي، وديني، وانتماء عائلي.. إلخ.

إن القيام بنشاطات خارج السياج، وفي مواجهة السياج والقمع، من شأنه أن يخدم ليس فقط النضال ضد الاحتلال والسلام العادل والمساواة، بل أيضاً سيساعد الناس في التحرّر من مصطلحات وعقليات والنضال دفاعاً عن قضاياهم والبحث عن شركاء جدد ومتنوعين، هذا هو كابوس المؤسسة الكولونيالية.

حدود قوّتنا واضحة لنا، وكذلك حدود القوى المشاركة في المقاومة السياسية لسياسة الهدم والاحتلال والنهب. اثبت الرفض الاخير للعمليات العسكرية علاقات القوى السائدة وحدود حركة الاحتجاج والتضامن في اسرائيل، وبضمن ذلك ايضا حدود انماط العمل التي طورناها في «تعايش». من هنا هذه المسؤولية الملقاة على عاتقنا: ايجاد انماط عمل اخرى، تسمح بتطوير وتعميق معارضة الاحتلال، وتسعى لخلخلة اسس نظام الفصل وبناء بديل من التعايش القائم على المساواة. هذه هي التحديات التي نقف امامها جميعا.

هوامش

١ «المحاسيم» كلمة عبرية تعني الحواجز (العسكرية)، وهي متداولة بلفظها العبري على الصعيد الشعبي الفلسطيني، كونها «ظاهرة ملازمة» للاحتلال الاسرائيلي المتواصل منذ ٣٥ عاما. («قضايا اسرائيلية»).

٢ دافيد بن غوريون، «جيش للحماية والبناء»، (١٩٤٨)، خاصية وهدف: اقوال عن امن اسرائيل (تل ابيب: وزارة الدفاع، ١٩٧١)، ص ٤٤ - ٥٢ ، هنا: ص ٥١.

٣ اليعيزر ليفنه، اهرون اهرونسون: الرجل ورؤياه (القدس: مؤسسة بياليك، ١٩٦٩)، ص ٢٥٣.

٤ افشالوم فاينبرغ، «تقرير الى السيدة هنرييتا سالد»، نصوص ورسائل (تل ابيب: شكمونه، ١٩٧١)، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

٥ من المهم ان نوضح الفرق بين الجدار والحدود. الحدود السياسية ترمي الى الفصل بين مجموعات بشرية سيادية، وتمكينها من اقامة علاقاتها الانسانية المتبادلة، بمحض ارادتها وحسب اختيارها. السياج - حتى سياج المعتقل - يحيط بالمحكومين، لكنه لا يقيد الحكام في أي حال من الاحوال. انه قابل للاختراق تماما من جهة واحدة، كما اثبتت اسرائيل ذلك منذ البداية عبر «عمليات الرد»، «والعمليات العقابية»، و «الاحباط المحور» و «العمليات الوقائية». بنفس القدر يجب ان نوضح ان التعايش ليس الذوبان: هو لا يعني التخلي عن الهوية الثقافية، بل حرية العيش سوية وتطوير هوية بلا قمع او تسلط. الهوية الاجتماعية، مثل الهوية الشخصية، هي بداية سيرورة مفتوحة للفعاليات البشرية المتبادلة.

٦ اقرأ تقريراً في موقع تعايش: Taayush.tripod.com.

٧ مخيم العمل التطوعي الذي تنظمه بلدية الناصرة في كل عام منذ ١٩٧٦، وشارك فيه متطوعون يهود وفلسطينيون من المناطق المحتلة.